طبيعة العلاقات الجزائرية
مع المغرب الأقصى وتونس (1830-1847)

أ. العيد فارس*

مقدمة: اختصت الجزائر وتونس والمغرب الأقصى برقعة جغرافية جد إستراتيجية جعلتها تؤثر وتتأثر بجميع التطورات الحاصلة في العلاقات الدولية على مر العصور التاريخية، ومع بداية القرن التاسع عشر تصاعدت الأطماع الاستعمارية ضد الأقطار الثلاث، ونظرا لحالة التردّي والتفكك داخل الكيانات السياسية المتحكمة في الأقطار الثلاث سقطت تحت الهيمنة الاستعمارية حيث تم احتلال الجزائر في 1830م، ثم سقطت تونس تحت الحماية الفرنسية في سنة 1881م، ليليهما المغرب الأقصى الذي خضع هو الآخر للحماية الفرنسية في سنة 1912م.

وقد عرفت العلاقات الجزائرية مع المغرب الأقصى وتونس مع بداية الاحتلال الفرنسي (1830م - 1847م) تطورات هامة على جميع الأصعدة، وهو ما يجعل المهتم بتاريخ هذه المرحلة يطرح عدة تساؤلات: فكيف تأثرت العلاقات الجزائرية مع المغرب الأقصى وتونس بعد خضوع الجزائر للاحتلال الفرنسي، وما هي العوامل التي أضحت تتحكم في تلك العلاقات؟

1- العلاقات الجزائرية المغربية: كانت العلاقات السياسية بين السلطنة العثمانية في الجزائر والسلطات المغربية قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر تتسم بالاضطراب، غير أن ذلك لم يؤد إلى قطع العلاقات تماما بين الجزائريين والمغاربة، فقد كانت هناك علاقات اقتصادية واجتماعية وثقافية بين الطرفين، وكانت السلطات المغربية تسعى جاهدة لتوطيد علاقاتها مع سكان الجزائر في تلك الميادين حتى تكسب متعاطفين معها داخل القطر الجزائري لمواجهة العثمانيين، وهو الأمر الذي أدى بعد احتلال مدينة الجزائر ثم مدينة وهران إلى لجوء بعض أعيان الجزائر إلى السلطان المغربي لمواجهة الاحتلال الفرنسي، وانجر عن ذلك تدخل مغربي زاد من سوء أوضاع الجزائريين خلال الفترة الممتدة ما بين 1830م إلى 1832م، وسيؤسس ذلك لعلاقات مضطربة خلال فترة قيادة الأمير عبد القادر للمقاومة الوطنية (1832-1847م).

1-1- لجوء بعض أعيان الغرب الجزائري إلى المغرب الأقصى: نظرا لطبيعة العلاقات التاريخية بين سكان الغرب الجزائري مع المغرب الأقصى طلب أعيان المنطقة النجدة من السلطان المغربي

*أستاذ مساعد في التاريخ الحديث والمعاصر - شعبة التاريخ - قسم العلوم الإنسانية - جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف.

لنصرتهم على العدو الكافر، خصوصا وأنّ السلطات العثمانية قد استسلمت للفرنسيين ولم يكن هناك في الأفق ما يؤكد بأن الباب العالي سيتدخل لنجدة الجزائريين¹، ومن جهة أخرى كان السلطان عبد الرحمن أقرب سلطة إسلامية يمكنها نجدة سكان الجزائر.

بعد سقوط مدينة الجزائر بيد الفرنسيين، ووصول قوات أميدي بورمون إلى وهران في أوت 1830م²، قام سكان تلمسان³ بتسيير وفد إلى سلطان المغرب عبد الرحمن في أواخر شهر أوت من نفس السنة، طالبين منه الحماية من الخطر الفرنسي الذي يهدد بهم، ولما وصل هذا الوفد إلى وحدة استقبالهم عامل السلطان المغربي بها أبي العلاء الإدريسي الجاروي، الذي أحالهم إلى السلطان عبد الرحمن بفاس، حيث التقى هذا الوفد بالسلطان عبد الرحمن في أوائل سبتمبر 1830م⁴، وعرضوا عليه مطالبهم، إلا أن السلطان المغربي وبعد جمعه لعلماء وفقهاء فاس، أشاروا عليه بفتوى مفادها أن تلمسان وضواحيها تقع تحت سلطة عثمانية ولا يحق له التدخل بها، فأخذ السلطان بهذه الفتوى ورد على وفد تلمسان بما أشار له به علماء وفقهاء فاس. فعاد هذا الوفد إلى تلمسان⁵، وعلى الفور تم تشكيل وفد آخر من سكان تلمسان، كان هذه المرة يضم عددا من أعيان الحضرة والكراغلة وقبائل المخزن، ومن شارك في هذا الوفد نذكر: رمضان التركي ومصطفى بن اسماعيل والمازاري وبن ددوش وفورمالا، وكان عدد عناصر هذا الوفد حوالي مائة، كانت مهمتهم الإلحاح على السلطان المغربي للتدخل في تلمسان والرد على الفتوى التي أجابهم بها سابقا⁶، وفي أواخر شهر سبتمبر استقبال هذا الوفد من قبل السلطان المغربي وأوضحوا له بأن سلطة العثمانيين بالمنطقة قد اندثرت نظرا لبعدها المسافة بينهم وبين العثمانيين في اسطنبول، وكذا حالة الضعف التي جعلت سلطة العثمانيين في المنطقة غير مؤسسة، إضافة إلى ذلك فإن السلطان المغربي كان يرى في وضع الجزائر فرصة مهمة لتوسيع مملكته⁷، فقام باستحداث منصب خليفة السلطان على الضواحي التلمسانية، وعين فيه ابن أخيه مولاي علي، ووضع تحت تصرفه حوالي خمسمائة فارس ومائة من المشاة ومجموعة من عناصر الطبعية، كما أمر السلطان المغربي عامله على وحدة إدريس الجاروي بمرافقة مولاي علي إلى تلمسان، ومساعدته في توطيد الحكم المغربي بها.⁸

1-2- التواجد المغربي بالجزائر: وصلت القوات المغربية إلى تلمسان في 07 نوفمبر 1830م، واستقرت بقصر الباي قارة سليمان، بعد أن رحب بهم حضر المدينة، أما الكراغلة فأرسلوا هدية لمولاي إسماعيل عربونا لحسن نيتهم اتجاهه، إلا أنهم لم يتزلوا من قلعة المشور ويقوا متحصنين بها وهو ما أثار حفيظة مولاي علي الذي بدا له أن السيطرة على تلمسان لن تكون ذا أهمية بدون

قلعة المشور، فطالب الكراغلة تسليمه القلعة⁹، فأبوا ذلك وأرسلوا له وفدا يفاوضه في الأمر كان من بينهم مصطفى بن إسماعيل، فقام مولاي علي بتكبير أفراد هذا الوفد وبعثهم إلى السلطان المغربي كأسرى. وهو ما أثار نقمة سكان تلمسان على مولاي علي، الذي استولى على أملاك الكراغلة بمدينة تلمسان، وقام بحملة ضد قبائل المخزن استولى فيها على عدد كبير من المواشي التابعة لهذه القبائل، بالإضافة إلى ذلك بدأت السلطات الفرنسية بالجزائر، والتي كان على رأسها في هذه الفترة كلوزال، تضغط على السلطان المغربي لسحب قواته من تلمسان، حيث قام هذا الأخير في 30 نوفمبر 1830م بمراسلة قنصل فرنسا في طنجة دولابورت يطلب منه إبلاغ السلطان عبد الرحمن برسالة شديدة اللهجة لسحب قواته من تلمسان، وفي 03 جانفي 1831م عاود الجنرال كلوزيل تهديداته للسلطان المغربي ببعثه للضابط أوفراي شخصا ليلبغ السلطان تهديدات بغزو أراضيه إذا لم يسحب قواته من تلمسان¹⁰.

أمام عدم استجابة السلطات المغربية لهذه التهديدات، قام وزير خارجية فرنسا الكونت سبستاني ببعث مذكرة باسم الحكومة الفرنسية يطالب فيها السلطان بالانسحاب من تلمسان، وأمام هذا الضغط الفرنسي والاضطرابات التي أحدثها مولاي علي بالمنطقة، قام السلطان بسحب تلك القوات التي بعثها إلى تلمسان في 08 مارس 1831م¹¹.

على الرغم من تلك الفوضى التي أحدثها التواجد المغربي بتلمسان، بزيادة حدة التوتر بين التشكيلات الاجتماعية المكونة لمجتمع تلمسان، لم يتوان السلطان عبد الرحمن في بعث قوات جديدة إلى الغرب الجزائري في 03 أوت 1831م تحت قيادة محمد بن الحمري الذي وصل إلى تلمسان في 16 أوت¹²، وبالرغم من المساندة التي أظهرتها قبائل المخزن لمحمد بن الحمري، إلا أن هذا الأخير لم يستطع الحصول على تأييد كل قبائل الغرب الجزائري، حيث أن فشله في مواجهة القوات الفرنسية بوهران ما بين 8 و22 أكتوبر، جعله يعمل على كسب طاعة قبائل المنطقة بالقوة، كما بدأ يعمل على تنظيم جباية الضرائب، وهو ما أكسبه عداوة معظم قبائل المنطقة التي رأت فيه باحثا عن الثروة والأموال عوضا عن مواجهة أعداء المسلمين بوهران، ولذلك نجد هذه القبائل قد حاصرت قوات محمد بالحمري بمعسكر، ورفضت تأدية ما كان يطلبه منها من ضرائب¹³، بالإضافة إلى ذلك فإن السلطات الفرنسية، بعد أن أدركت الدور الخطير الذي تلعبه قوات سلطان المغرب بالغرب الجزائري، أخذت تمارس ضغطا على حاكم المغرب بواسطة بعثها لسفيتين حربيتين إلى ساحل مدينة طنجة المغربية في 18 نوفمبر 1831م، ثم قام الملك الفرنسي

لوي فيليب بإرسال الكونت شارل دومولي سفيرا فوق العادة إلى السلطات المغربية محملا بمذكرة تهديد شديد للهجة، يطالب فيها الفرنسيون السلطان عبد الرحمن بسحب قواته من الغرب الجزائري، وإلا فستقوم السفن الفرنسية بقصف ميناء طنجة وجميع مدن الساحل المغربي¹⁴.

أمام هذا الضغط الممارس من قبل السلطات الفرنسية، وسوء تصرف محمد بن الحمري بتلمسان وضواحيها، وهو ما جلب له نقمة معظم سكان الغرب الجزائري عليه، قام السلطان المغربي بسحب قواته مجددا من تلمسان في 22 مارس 1832م¹⁵، بعد أن أحدثت تلك القوات المغربية شروخها بين سكان تلمسان الذين كانوا يعانون أصلا من تلك الفوارق التي كانت بينهم خلال العهد العثماني، فأصبحت أوضاع المنطقة جد مزرية بسبب عمليات النهب التي قام بها المغاربة، وتآليب القبائل على بعضها البعض. وبذلك كان لتوجيه سكان تلمسان نحو سلطان المغرب بغرض الحماية ودحر خطر الاحتلال الفرنسي نتائج عكسية، أدت إلى زيادة الظروف المعيشية للسكان سوء، وإلى سيادة حالة اللاأمن في منطقة الغرب الجزائري عامة¹⁶.

1-3 موقف السلطان المغربي من الأمير عبد القادر: أخذ الأمير عبد القادر عقب مبايعته يبحث على كسب جميع الأطراف التي يمكن أن تمدّه بالمؤونة لدعم المقاومة، وعليه حاول الأمير نسج علاقات جيدة مع المغرب الأقصى حتى يكون القاعدة الخلفية التي تدعم المقاومة الوطنية، وفي نفس الوقت كان المغرب الأقصى يتوجس من السياسة التوسعية الفرنسية، وعليه نجد بأن المقاومة قد لقيت الدعم من قبل المغرب الأقصى¹⁷، فكانت أهم المساعدات التي قدمها المغرب في هذا المجال تلك التي بعث بها السلطان عبد الرحمان إلى الأمير بعد مبايعته، حيث وصلت الأمير مساعدات من ملك المغرب في سنة 1833م تضمنت 100 بندقية، ومثل هذا العدد من السيوف وكميات الذخيرة¹⁸.

ولقد لعب التاجر المغربي "الطيب بن جلول" دورا كبيرا في تزويد الأمير بالأسلحة، حيث ذكر دوماس بأن هذا التاجر زود الأمير بأربعمائة بارودة إنجليزية، ومائتي بشطولة وثلاثمائة سيف، وعشرين حمولة من الكبريت وخمسة عشر أخرى من ملح البارود¹⁹. كما كان للأمير ممثلا خاص في إسبانيا، وهو "نويل مانوننتشي"²⁰ الذي ساهم في التعاملات الخارجية للأمير عبد القادر، وكان له دور في تزويد الأمير بالأسلحة والذخيرة التي كان يشتريها من الموانئ الإسبانية، ويبحثها للأمير عبر المغرب الأقصى²¹؛ ففي 04 جويلية سنة 1838م وصلت إلى تاكدمت قافلة تضم مائة برميل من الذخيرة من طرف هذا الأخير²²، كما تلقى الأمير في 1841م شحنة من الأسلحة من المغرب²³

تقدر بنحو ألف بندقية وبعض الحمولات من البارود، كما كان الأمير يحصل على الأسلحة عن طريق الشراء والتهرب²⁴، وبخاصة من المغرب الأقصى حيث كانت تأتي من جبل طارق وتمر عبر الحدود بمساعدة السلطات المغربية أو بتواطئها²⁵ قبل أن تتوتر العلاقة بينهما.²⁶

1-4 واقع العلاقات المغربية الجزائرية مع نهاية المقاومة: بعدما كانت العلاقة ودية بين الأمير عبد القادر والسلطان عبد الرحمان خلال السنوات الأولى من المقاومة، أصبحت تلك العلاقة في السنوات الأخيرة من المقاومة تتسم بالعداء، حيث أن لجوء الأمير إلى المغرب الأقصى والتفاف بعض قبائل المغرب حوله جعلت السلطان المغربي عبد الرحمن يتوجس من الأمير، يضاف إلى ذلك الضغوطات التي كانت تمارس على السلطان المغربي من قبل السلطات الفرنسية. وبعد معركة إيسلي التي جرت في 14 أوت 1844م بين المغاربة والفرنسيين، والتي انتهت بهزيمة القوات المغربية، اضطر هذا الأخير إلى توقيع معاهدة طنجة في 10 سبتمبر 1844م²⁷، والتي ينص البند الرابع منها على "اعتبار الأمير عبد القادر خارجا عن القانون في المغرب الأقصى والجزائر، وبذلك يكون محل مطاردة من قبل الجانبيين، حتى يجبر على الرحيل من أحد البلدين أو يقع في قبضة سلطاته، وفي حالة وقوعه في يد حكومة جلالة إمبراطور فرسا فإن الإمبراطور يتعهد بأنه يعامله باحترام وكرم، وفي حالة وقوعه في قبضة السلطات المغربية، يتعهد السلطان بأن يعتقله في إحدى مدن الشواطئ الغربية للمملكة، وذلك حتى تتفق الحكومتان على الإجراءات الضرورية لمنع الأمير من حمل السلاح من جديد وتعكير الهدوء مرة أخرى في الجزائر والمغرب الأقصى²⁸، وفي 17 مارس 1845م وقع الجانبان اتفاقية "اللا مغنية" التي رسمت الحدود بين الجزائر والمغرب، وبذلك أصبحت المقاومة بين قوتين كبيرتين تفوقها عددا وعدة²⁹.

أصبحت معظم القبائل الجزائرية تعيش ظروفًا سيئة وهو ما أدى إلى إضعاف المقاومة الوطنية، مما اضطر الأمير إلى الهجرة نحو المغرب الأقصى؛ فالحصول على المؤن من داخل الجزائر أضحى جد صعب جراء عمليات الحرق والتدمير والمصادرة التي كانت تتعرض لها القبائل³⁰، كقبيلة بني عامر³¹ التي كانت تمون المقاومة بالمقاتلين والمؤن منذ بداية المقاومة في الغرب الجزائري، تعرضت في أواخر سنة 1843 إلى حملة عسكرية قادها الجنرال بيدو ضدها بمنطقة سيدي بلعباس، وخوفًا من تمرد هذه القبائل مرة أخرى، أبقى بيدو على قوات بمضارب هذه القبيلة لمنعها من دعم دائرة الأمير عبد القادر، خصوصا بطن الجعافرة الذين أجبوا على الإقامة بالقرب من المركز العسكري الفرنسي بمنطقة بلعباس، لمنع أي اتصال بينهم وبين الأمير عبد القادر³²، ونظرا للضغط الممارس

على هذه القبيلة أعلن أحد بطونها الثورة على السلطات الفرنسية، وهم أولاد إبراهيم العمارنة في جانفي 1845م³³، فزادت السلطات الفرنسية تضيق الخناق على هذه القبيلة، فاضطرت العديد من بطونها إلى الهجرة إلى المغرب الأقصى خلال سنة 1845م كأولاد إبراهيم وأولاد سليمان وذوي عيسى، وأولاد سيدي علي بن يوب وأولاد بلاغ وأولاد سيدي خليفة والمهاجرة وجعفر بن جعفر، ولم تعد إلى مضاربها حتى سنة 1849م³⁴، حيث وجدت معظم أراضيها وأملاكها قد صودرت تطبقا لتعليمات بيجو الذي صرح في 18 أفريل 1846م بأن: "كل الأملاك العقارية والمنقولة الفرنسية"³⁵، وبذلك أصبحت هذه القبيلة تعاني من وضع مزر جراء ما تعرضت له على يد السلطان المغربي والسلطات الفرنسية.

وبذلك أضحت علاقات الجزائريين بالمغرب الأقصى تتميز بالتوجس والاضطراب نتيجة لرغبة السلطات المغربية في توطيد علاقاتهم مع السلطات الفرنسية على حساب علاقاتهم مع الجزائريين، غير أن هذه العلاقات لم تتوقف عند هذا الحد بل ستشهد تطورات حاسمة خلال الفترات اللاحقة.

2- العلاقات الجزائرية مع تونس: تعود الجذور التاريخية للعلاقة الأخوية بين المجتمع الجزائري والتونسي إلى العصور القديمة إذ اختلط المجتمع الجزائري القديم بالمجتمع التونسي منذ عهد الدولة القرطاجية والنوميديّة وفترة الاحتلال الروماني والبيزنطي لبلاد المغرب القديم، وبعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ازدادت العلاقات الاجتماعية والثقافية توسعا وعمقا أما في العصور الحديثة فقد عرفت العلاقات بين الشعبين الجزائري والتونسي تطورا وتمازجا كبيرا خاصة بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر 1830م.

2-1 التجاذبات التي تحكمت في العلاقات الجزائرية التونسية: إن نوعية العلاقات بين الجزائر وتونس كانت في مستويين الأول رسمي والآخر شعبي، وكانت تتحكم فيها عوامل كثيرة، ثقافية واجتماعية وحتى إقليمية جغرافية حيث كانت نقاط التماس بين مفاصل التشكيلات السكانية الممتدة على الساحل التلي أو الصحراوي من الجزائر إلى تونس ثقافية واجتماعية أكثر مما كانت سياسية، إذ كان لشيوخ الدين الطرقيين دور فاعل في إقامة روابط بين السكان في كلا البلدين. ولنا أن نذكر بما قامت به كل من الرحمانية والتجانية والشابية من تقارب بين سكان الولايتين، فنفوذ التجانية والرحمانية كان واسعا في البلاد الجزائرية والتونسية معا؛ فلقد كان للزاوية الرحمانية في نفطة بالجنوب التونسي دور كبير، وكذلك الزوايا القادرية والتجانية المنتشرة بكثرة في التراب

التونسي، وذلك بالموازاة مع تأثير الشابية الذي كان كبيرا في المجتمع الجزائري الذي اتسع أكثر في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر³⁶.

كما تعكس دراسة العلاقات الجزائرية التونسية خلال هذه الفترة مراحل تاريخية هامة من تاريخ الجزائر، فهناك تفاعلات ووجوه تباعد وتكامل بين الطرفين، فلقد كانت العلاقات بينهما خلال فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر تتسم بالعداء والصراع المستمر خصوصا خلال عشرينيات القرن التاسع عشر والتي احتدمت بعد تولي أحمد باي بايلك الشرق في جويلية 1826م، حيث أثرت مشكلة الحدود بين الطرفين نتيجة لعدم احترام بعض القبائل التونسية للحدود الفاصلة بينها وبين القبائل الجزائرية، وهو ما أدى إلى نزاعات بين تلك القبائل استمرت حتى الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهو الأمر الذي يفسر الموقف الودي للباي التونسي من الحملة الفرنسية على الجزائر وتقديمه للمساعدات التموينية والدعائية لها، ومنعه قوة عثمانية قادمة من مصر للوصول إلى الجزائر³⁷.

2-2- التواجد التونسي في الغرب الجزائري: سعت السلطات الفرنسية إلى استغلال واقع العلاقات المتردية بين السلطات العثمانية في الجزائر وفي تونس³⁸، حيث جرى في هذا الإطار عقد اتفاق بين الجنرال كلوزال والباي التونسي في 18 ديسمبر 1830م يقضي بتولي أحد أفراد أسرة الباي التونسي إقليم وهران مقابل دفع مليون فرنك سنويا للسلطة الفرنسية، وقد لعب القنصل الفرنسي ديليسبس دورا كبيرا في هذا الاتفاق الذي كان يضع إقليم قسنطينة تحت نفس الإطار الذي شهدته وهران³⁹، وعلى ضوء هذا الاتفاق قام الباي أحمد التونسي، وهو من أفراد عائلة باي تونس بإرسال نائب عنه إلى وهران، وهو خير الدين الذي قدم إليها في 04 فيفري 1831م مع قوة تتألف من حوالي 200 مقاتل⁴⁰؛ فوجد الأوضاع بالمدينة لا تساعد على توطيد سلطته، حيث كان أفراد الحامية العثمانية التابعة للباي حسن السابق والبالغ عددهم حوالي 800 عنصر يطالبونه بترحيلهم إلى المشرق، بينما كانت القوات الفرنسية لا تستطيع الخروج من المدينة⁴¹.

كما وجد قسبة المدينة، التي كانت تضم خزينة الباي، قد تعرضت للتخريب والنهب، وأصبحت فارغة من الأموال، كما أن معظم أملاك البايلك بالمدينة كانت تحت سيطرة القنصل الإنجليزي بالمدينة مدعيا بأنه قد اشتراها من الباي حسن، أما قبائل المخزن التي كان يأمل قائم مقام الباي التونسي في مساندتها له فكانت قد اتجهت نحو تلمسان⁴².

غير أن الأمور سرعان ما أصبحت في صالح التونسيين بعد أن رجعت قبائل المخزن إلى ضواحي وهران، وأبدت رغبتها في التعامل مع الباي التونسي، كما أن حوالي 400 عنصر من أفراد الحامية العثمانية السابقة انضمت إلى التوانسة، كما أن أفراد حامية مستغانم ومعسكر وكراغلة تلمسان قد أبدوا هم بدورهم رغبتهم في الانضواء تحت لواء الباي التونسي، إلا أن هذا الأخير لم تكن له الأموال اللازمة لدعم حلفائه الجدد لكسب ثقتهم، بل حتى قواته بوهران كانت تعاني من قلة المؤن وهو ما دفع خير الدين إلى تسيير حملة تتكون من حوالي 500 مقاتل في أواخر شهر افريل 1831م باتجاه مستغانم؛ فاستولت هذه القوات على حوالي 4000 رأس من الماشية، وقتلت العديد من أفراد الدواوير والقبائل الواقعة بين مستغانم ووهران، وهو ما أدى إلى نعمة معظم سكان المنطقة على التوانسة جراء هذا التصرف؛ فأصبح تواجههم بالمنطقة غير مرحب به، إضافة إلى ذلك، فإن الحكومة الفرنسية لم توافق على الاتفاقية التي عقدها كلوزال مع الباي التونسي، وهو الأمر الذي جعلها تعين مكانه الجنرال بارثيزان في 20 فيفري 1831م، وزودته بأوامر تقضي بفض الإلتفاق مع التوانسة، وتحصين مواقع القوات الفرنسية بوهران، وعلى إثر ذلك تم ترحيل التوانسة من وهران في 05 جويلية 1831م⁴³.

2-3- العلاقات الجزائرية التونسية خلال فترة المقاومة الوطنية: ساند بايات تونس السلطات الفرنسية في احتلالها للجزائر، بل ساهموا في الكثير من الأحيان في إضعاف المقاومة الوطنية، فالباي حسين (1824-1835م) أكد في مراسلاته للقنصل الفرنسي بتونس دعمه اللامحدود للاحتلال الفرنسي للجزائر⁴⁴، بل ونجده يكتب سكان الشرق الجزائري يدعوهم إلى الثورة على أحمد باي والانضمام إلى صفه⁴⁵، حيث جاء في إحدى رسائله بهذا الخصوص ما يلي: "إن الجزائر لما حل بها ما حل، وكان أمر الله أمرا مقدورا، أصبحتم في فوضى وعرضه لكل حد أمضى، لا تأمنون نزاعا، ولا تستطيعون دفاعا. وبقاؤكم على هذه الحالة يفضي إلى تشتيت الكلمة واستئصال أمة مسلمة، وإن الجيش الفرنسي لا قبل لكم به ولا طاقة؛ فالواجب الآن أن تنضموا إلينا وترتكوا القتال، لأنه إلقاء باليد إلى التهلكة، في هذه الحال المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا"⁴⁶، وحتى تزيد السلطات الفرنسية من حدة الاضطرابات بين بايات تونس وأحمد باي شرعت في بث نفوذها على المناطق الحدودية الشرقية أواخر عام 1873م حيث قامت بالسيطرة على أراض واسعة منها أراض تونسية؛ فأخذت في هذا الإطار فخذنا من قبيلة نهد المتوطنة غرب القطر التونسي كما ضمت فخذنا آخر لنفس القبيلة بالقالة⁴⁷، ويمكن القول إن سياسة بايات تونس اتجاه الجزائر كانت محكمة

بعده اعتبارات منها التدخل الفرنسي في الشأن الداخلي التونسي، وسوء العلاقات بين السلطات العثمانية في الجزائر وتونس، ورغبة بايات تونس في التوسع على حساب الجزائر⁴⁸، غير أن ذلك لا يعني بأن بايات تونس قد قطعوا علاقاتهم تماما مع الجزائريين، حيث نجد الباي التونسي يستقبل الجزائريين الفارين إلى بلاده، ومن ذلك أنه استقبل كثيرا من الجزائريين الذين لجأوا إلى تونس بعد سقوط قسنطينة، وضم إلى جيشه من كانوا في الخدمة الحربية في صف الحاج أحمد باي، وقام بهذا الاستقبال كذلك الأهالي التونسيين المتعاطفين مع الجزائريين⁴⁹.

إضافة إلى ما سبق نجد أن الباي التونسي قد عقد علاقات مع قادة المقاومة كالأمير عبد القادر والباي أحمد؛ فالأمير عبد القادر بعث وفدا تحت رئاسة محمد الصغير بن الحاج خليفته على بسكرة ومحمد كانون، وقد استقبل هذا الوفد من قبل الباي التونسي الذي تجاوب معه رغبة منه في العمل مع الأمير لمحاصرة أحمد باي، بينما يبدو أن هدف الأمير من وراء هذا الاتصال هو كسب حلفاء جدد لدولته الفتية⁵⁰، وكذا توحيد الصف المغاربي لمواجهة الاستعمار الأوروبي، وتبرز مراسلات الأمير لحمودة باشا التي كان تبين هذا المعنى بوضوح، غير أن موقف الباي التونسي لم يبق على نفس الود من الأمير عبد القادر حيث سرعان ما تغير إذ تم منع وكيل الأمير من شراء الأسلحة باسم الأمير وتقديم أي مساعدة له⁵¹.

كما نجد أن الباي التونسي قد حافظ على صلته مع بعض أعيان الجزائر كمحمد الحسنواوي شيخ الحنانشة حتى يبقى على اطلاع بما يجري في الجزائر⁵²، كما أن تونس آوت العديد من الجزائريين خلال هذه الفترة كالحاج محمد الصغير خليفة الأمير عبد القادر على بسكرة الذي لجأ إلى التراب التونسي، وتبين بعض الرسائل التي تبادلها هذا الأخير مع رجال في السلطة التونسية بعض ذلك التضامن الذي أبداه التونسيون مع الجزائريين حيث جاء في رسالة بعث بها إلى أحمد باشا في سنة 1845م بأنه قد وجد في تونس الأرض الطيبة للإقامة حيث قال: "...بأمرك المطاع قدم إلي سليم قايد نقطة في شأننا بأن ندخل إلى إفريقية أو نخرج من العمالة... ولم يمكننا الإقامة هنا امتثالا لأمر سيادتكم، فهنا انتقلنا إلى سوف وبقينا منتظرين لأمرك؛ فإن أمرتنا بالرجوع فخرج لأننا دخلنا في حمايتك، واستظللنا بظل الله ثم بظلك، وجئنا مستجيرين بك وجاعلين نفوسنا كأحد من عمالتك، وهربنا تحت جناحك، وافتخرنا على الناس بذلك، وسمعت بنا سائر النواحي والرايات، وشكرنا فضلك في سائر القبائل..."⁵³.

لقد هاجر إلى تونس الآلاف من الجزائريين هروبا من السياسة الفرنسية خلال مقاومة الحاج أحمد باي والأمير عبد القادر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن 19م، ولجأ إلى تونس عدد كبير من المقاومين الجزائريين منهم الشيخ الحسناوي بن بلقاسم الحناشي، وهاجر ثوار مقاومة الزعاطشة بعد تخريبها إلى منطقة نفطة وتوزر ونفزاوة بإقليم الجريد، وهاجر إليها خليفة الأمير عبد القادر ومحمد الصغير بن عبد الرحمان والشريف محمد بن عبد الله و ثوار الزواغة وفرجوية سنة 1846م⁵⁴.
باحتيال فرنسا للجزائر وعمل السياسة الاستعمارية على تفكيك البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمجتمع الجزائري، كانت تونس ملاذا للجزائريين الفارين من جحيم الاحتلال وبطشه، بالرغم من تلك الضغوطات التي كانت تمارس على السلطات التونسية وكذا النظرة العدائية لدى بايات تونس اتجاه نظرائهم في الجزائر، وعليه يمكن أن نطرح عدة تساؤلات حول مصير تلك العلاقات خلال الفترة الممتدة ما بين 1848-1930م.

الهوامش:

*- أرجند كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827-1847، نقله عن التركية عبد الجليل التميمي، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس، 1974، ط2، ص51. ---- 2- العربي إسماعيل، المقاومة الوطنية تحت لواء الامير عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ط2، ص3. ---- 3- كان سكان تلمسان يتألفون من قسمين، فهناك الحضرة الذين كان على رأسهم بن نونة، وهناك الكولوغليين الذين كانوا تحت إمرة البورسالي، وكانوا متركون في قلعة المشوار. ينظر:

Louis Rinn, Le royaume d'Alger sous le dernier Dey, Adolphe Jourdan, ALGER, 1900, P55.

4- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، القسم الثالث: الدولة العلوية، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج9، ص26. ---- 5- نفسه، ص 27

6-Cour.A, L'occupation Marocaine de Tlemcen (Septembre 1830- Janvier 1836), Revue Africaine, OPU , N° 52, Alger, 1908. P 34.

7- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المصدر السابق، ص28. ---- 8- نفسه، ص31. ---- 9- Cour.A, op-cit, P.34.

10- العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص30. ---- 11- نفسه، ص31. ---- 12- العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص32.

13-Cour.A, op-cit, P.35. ---- 14- Ch. A.Julien,Histoire de l'Algérie contemporaine conquête et colonisation (1827- 1871), éd. PUF, Paris, 1979, P.71.

15- العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص33.

16- أبو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص169.

17- الكولونال إسكوت، مذكرات الكولونال إسكوت عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر 1841، ترجمة وتعليق إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص70.

18- محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ط2، دار البقطة العربية، دمشق، 1964، ص165.

19-George.Y, Abdelkader et le Maroc en 1838, Revue Africaine,O.P.U, n° 60, 1919, P.103.

20- نويل مانوتشي هو ابن قنصل إيطاليا في بترت التونسية، لعب دورا كبيرا في تنظيم اتصالات الأمير عبد القادر مع السلطات الإنجليزية في جبل طارق وإسبانيا، أنظر: إسكوت، المصدر السابق، ص14. ---- 21- نفسه، ص14. ---- 22- نفسه، ص133. ---- 23- نفسه، ص70.

24- العربي إسماعيل، العلاقات الدبلوماسية الجزائرية في عهد الأمير عبد القادر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص267.

- 25- إسماعيل العربي، مرجع سابق، ص 267، --- 26- نفسه، ص 270.
- 27- R. De Card, Les traités entre la France et le Maroc étude historique et juridique, éd. Durand, Paris, 1898, P. 54-55. --- 28- Ibid, P.56.
- 29- العربي إسماعيل، المقاومة الوطنية تحت لواء الأمير عبد القادر، المرجع السابق، ص 281.
- 30- تشرشل شارل هنري، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص 296.
- 31- بعد أن قامت قبيلة بني عامر ومعها بعض فروع الحشم بالهجرة إلى المغرب الأقصى، قام السلطان عبد الرحمن بإعطاء هؤلاء المهاجرين قطعة أرض بنواحي فاس، وخلال 1847 حاول هؤلاء الالتحاق بدائرة الأمير عبد القادر على الحدود المغربية الجزائرية، فاتجهوا نحو الشرق، ولكن السلطان عبد الرحمن رأى في ذلك تدعيماً لقوة الأمير بالمغرب الذي أصبحت علاقته به عدائية إلى أبعد الحدود، فأرسل في إثرهم قوات تتشكل من حوالي 1500 مقاتل أغلبهم من قبيلة الشراة تحت إمرة القائد إبراهيم بن أحمد الأكلحل، وبالرغم من استماتة اللاتيين في الدفاع عن أنفسهم، إلا أن القوات المغربية تمكنت من محاصرتهم وقتلت منهم عدداً كبيراً، أما الذين قبض عليهم المغاربة أحياء فقد وضعت السلاسل في أيديهم وأرجلهم، وطيف بهم في الشوارع للتشهير، بينما ساقوا النساء والأطفال الذين بقوا على قيد الحياة إلى مراکش لبييعهم في سوق العبيد. أنظر: محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص 491/الناصر السلاوي، المصدر السابق، ص 105.
- 32- De Mon Trond, Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830 à 1847, T II, E. Marc - Audel, Paris, 1847, P.294. --- 33- Ibid., P.295.
- 34- حنيفة هلايلي، منطقة سيدي بلعباس ومكانتها في سياسة فرنسا الاستعمارية (1842-1845)، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ع 8، 2003، ص 157.
- 35- Pau.A., Par l'épée par la chareure, écrits et discours de Bugeaud, éd. PUF, Paris, 1948, P. 115.
- 36- عميرواي حميدة، مرجع سابق، ص 47-48. --- 37- محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دار الشرق، بيروت، د.ت، ص 112. --- 38- العربي إسماعيل، المرجع السابق، ص 36.
- 39- عبد الجليل التميمي، مغامرة الحماية التونسية على وهران، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع 5، 1976، ص 05. --- 40- نفسه، ص 11.
- 41- نفسه، ص 13. --- 42- نفسه، ص 15. --- 43- نفسه، ص 15-19.
- 44- أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999، ج 3، ص 175-176.
- 45- أحمد توفيق المدني، 15 رسالة مخطوطة، مجلة التاريخ، ع 4، 1977، ص 50-61. --- 46- ابن أبي ضياف، المصدر السابق، ص 175-176.
- 47- نفسه، ص 48-49. --- 48- عميرواي حميدة، علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، دار البيعث قسنطينة، 2002، ص 71. --- 49- نفسه، ص 81. --- 50- محمد بن عبد القادر الجزائري، مصدر سابق، ص 139.
- 51- يحي بوغزيز، الامير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، ش.و.ن.ت، الدار العربية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 220. --- 52- نفسه، ص 245.
- 53- عميرواي حميدة، المرجع السابق، ص 107. --- 54- يحي بوغزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، دار الهدى عين مليلة 2004، ج 2، ص 203.

ABSTRACT: The nature of the Algerian relations with Morocco and Tunisia, (1830-1847)

Algeria, Tunisia and Morocco occupied an important geostrategic position on the Mediterranean Sea. This makes the three states in a daily confrontation with the European great powers in the modern times. With the beginning of the nineteenth century, the colonial powers show ambitions of conquest against the three countries, because of the degradation and weakness of these three countries, the Maghreb become under the colonial domination. Algeria was occupied in 1830, and then Tunisia fell under the French protectorate in 1881, followed by Morocco who fell under the French protection in 1912. This paper The nature of the Algerian relations with Morocco and Tunisia, (1830-1847), is an attempt to study the colonized Algerian relationship with Morocco and Tunisia, still independent, (1830-1847), and what's were the sequences of the domination of Algeria by France between the two neighbors.